حديث شهر ابريل — ٤

بين الڤاتيكان

وجريدة « لاكسيون فرانسيز »

لمراسلنا « س »

نحن في شهر ابريل الذي عُرف يومهُ الأول باجازة تهادي السمكة التقليدية . فهل أنا بتغيير موضوع الحديث هذه المرة ، أبغي توجيه سمكة أبريل إلى قرّاء « المقتطف » ؟

كلاّ . فالموضوع أهم وأجلّ من أن يكون وسيلةً للمزاشق بطريق الأكاذيب والافتراءات . إلاّ ان بعض القراء يرون اني أوجزتُ كثيراً في الإلماع إلى هذه القضية ، قضية التنافر بين الڤاتيكان وجريدة « لاكسيون فرانسيز » ، خلال حديث الشهر المنصرم وأن عليّ — وأنا التي أثرت ذكرى هذه القضية — ان أوضحها بعض الشيء أو أزيل عنها بعض الغموض على الاقل ، نظراً لغرابتها

أمّا ان ذلك مفروض عليّ ، فلا ! واما اني مستعدة للارضاء في حيّز مقدوري ، فنعم . ولكن النية الطيبة والاستعداد للارضاء ليسا كفيلين بتقديم ما يُرضي . عند ما أكتبُ عن شخصية أدبية لستُ أعني كثيراً أو قليلاً برأي الآخرين فيها وبما قالوا لها من قدح أو أغدقوا عليها من ثناء . إنما أعنى بأثرها فيّ وبالصورة التي رسمتها هي من كتاباتها في نفسي . ولا شأن لي في غير ذلك

اما موضوع الخصومة السياسية أو الدينية أو الأدبية فليس لي من رأي شخصي فيه ، ومخاصّة لأني أجهل مجموعة تفاصيله وخفايا الامور التي كوّنتهُ . وكل ما استطيعهُ لا يزيد عن طاقة أيّ أحد قرأ شيئاً في هذا الموضوع دون ان يجد من نفسه حافزاً لمشايعة هذا الفريق أو ذاك . هذا مع العلم بأن على الكاثوليك جميعاً ان يحترموا كل قرار موسوم بتوقيع قداسة البابا ، دون مناقشة أو جدال

وعلى ذلك ، أتناول هنا أقوال كاتبين اثنين ليسا من أعداء الكنيسة بل على النقيض هما من أعداء أعدائها وهما يدافعان عن عقيدتها . أولهما دوديه نفسه ، صاحب جريدة « لاكسيون فرانسيز » ، والآخر هو رينيه دي پلانهول[1] الذي يُعدُّ في طليعة كتاب فرنسا المعاصرين في النقد السياسي

(١) René de Planhol

والاجتماعي والأدبي والفني . ولستُ أعرف بالضبط قيمة رأيهما في هذا الموضوع ، وكل ما في الأمر اني أخص ذلك الرأي تاركة تبعته على صاحبيه

***

سبق أن أشرت في حديث الشهر الماضي الى كلمة مقتضبة من ليون دوديه في موضوع الخصومة. وهنا أورد تلك الفقرة كلها :

« أما الاضطهادات التي يوجهها إلى جريدة « لاكسيون فرانسيز » الفاتيكان المستسلم لذي الهوس الجرماني (germenomane) سكرتير الدولة (الفاتيكانية) جسبارّي (الكاردينال) ، الفاتيكان الذي يضللونهُ في أهمية حركتنا ومبلغ تأثيرها — تلك الاضطهادات أثارت سخطي لأجل أصحابنا المؤمنين أمثال روجر لامبلان وتريستان لامبير، ولأجل أصحابنا غير المؤمنين ولكنهم من أنصار الكنيسة أمثال شارل موراس . بيد أنّ تلك الاضطهادات فيما يختصّ بي لم تؤثر فيّ ولم تزعزع من عقيدتي . بل أكثر من ذلك ، إنها بدت لي كامتحان من العناية الالهية يعدّنا للنصر نهائي بعودة الملك . إن طبيعة تلك الاضطهادات الشاذة الغبية اللاغية والتمرد السليم الذي أثارته . كان لها الوقع المناقض الذي كثيراً ما نجده في التوسطات الالهية . الاقدار تضربنا بطريقة مباشرة . أما العناية الالهية فتضربنا بطريقة منعرفة ، ملتوية . . . وقد أتيح لي أن ألاحظ ذلك غير مرة (صفحة ٢١٧ من كتاب "Vingt-Neuf Mois d'Exil")

ويقول صفحة ٢٢٢ و٢٢٣ من الكتاب نفسه :

« كثيرون من رجال الاكليروس الذين أسخطهم إجراءات روما المتعددة عبثاً ضدنا من رشق بالحرم ومن تعذيب ضمائر المحتضرين ، طالما طرقوا بابي فاستقبلتهم دائماً بسرور وامتنان ورأيت فيهم تلك الشجاعة التي يحتاج اليها الكثيرون من أصحاب المقامات في الكنيسة ، شجاعة نجدها في هذا الموقف كما في غيره ، حليفة طريقة عكسية في تدرُّج المراتب — عدا الاستثناء الجليل الشأن . في جميع الأنظمة البشرية ، حتى الأنظمة المتصلة بمحظوظ النفس ، نلحظ التناقض في الهمم وفاقاً للرقيّ الاداري . هو المجتمع الذي يريد ذلك . يجب ان نعرف ذلك مع حسب حساب الاستثناءات السامية — وان لا نحنق من جرائه . فقد قال موراس ان الحنق والامتهان ليسا من المهارة السياسية في شيء »

ويقول في كتاب «Paris Vécu (1)» : « ولما وجب قول الحقيقة فاني أضيف ان الاضطهادات الرومانية الموجهة ضد « لاكسيون فرانسيز » منذ سنة ١٩٢٦ لم تزعزع لحظة واحدة من إيماني .

(١) صدر هذا الكتاب سنة ١٩٣٠

كثيراً ما يحدث في الواقع ان يضطهد المدافعين عن قضية وان يكرّم اولئك الذين يتفانى المدافعون في خدمتهم؛ اذ يرى المضطهدون من مصلحتهم ان يتضافروا مع الاعداء على حساب المدافعين حتى انتصار هؤلاء على الاقل . هذا امر جد بشري . . . » (صفحة ٥٩ — ٥٨)

عرفنا مبلغ اعجاب دوديه بموراس ، وهناك شواهد اخرى عن ذلك الاعجاب العظيم . فهو يقول في مذكراته (Paris Vécu) عند وصفه الحي اللاتيني في باريس : « انما ذلك المزيج من الكد والتفاهم والانصاف والشباب ايضاً ، ومن الاستحثاث والحب (لجل الحب، حب المرأة وحب المعرفة) والدعابة التي لا تحمل غمّاً ، هو ما كان يكوّن وما زال يكوّن جو الفتنة العميقة في الحي اللاتيني . غير ان في الوقت الذي اكتب فيه ترى الروح السياسي قد تبدل تماماً . في عهد دراستي كان الحي اللاتيني جمهورياً راديكالياً ومضاداً للجنرال بولانجيه . اما اليوم فالحي ملكيٌّ ولا يحلف الاّ بموراس . وكون موراس من كبار رجال العلوم الادبية (un très grand humaniste) مما ينشر الحماسة له من الصفة السياسية الى صفة الثقافة العامة . أن الاعجاب كالحب ، ينزع الى الكمال والى المطلق . . . »

وفي مكان آخر: «انهزمت اليعقوبية (Jacobinisme) فحلت محلها النابوليونية (Napoléonisme) الطاغية العاملة على التمركز . وما فتئت تنبع بكلكلها على كلية الطب في باريس ، ولكن يقال لي انها الآن أخف وطأة منها في عهد دراستي . ذلك لانهم ادركوا ان الكثيرين من الاطباء والجراحين اخذوا ينضمون منذ بضعة اعوام الى عقيدة موراس وال الملك . للامم كما للافراد ، اطباء امثال ريشليو ، وكاثور ، وبزمارك ، وموراس ، يسمونهم رجال الدولة ولكنهم في حقيقة الامر أطباء . وقد بذل موراس جهده ليشفي فرنسا ومن خلالها اوربا ، من عديد العلل التي خلقتها الثورة والامبراطورية . فأدركت ذلك هيئة الطب الفرنسي كالشبيبة الفرنسية ويمكن ان يقال كجمهورة الامة كلها . ومن المحزن ان البابا بيوس الحادي عشر ، على نقيض سلفه بيوس العاشر ، لم يفهم ذلك ولم يحبه . لقد ضل فداسته ، بلا ريب ، الكاردينال المهووس بنزعته الجرمانية ، جساري . ولولا ذلك لوقر على نفسه اخفاقاً لاذعاً ، نحن اول من يأسف له ». (صفحة ٥٨ـ٥٧ من "Paris Vécu")

***

أما في نظر رينيه دي بلانهول لجريدة « لاكسيون فرانسز » في طليعة الصحف الفرنسية نزاهة واستقامة

وهو معجب بليون دوديه ، يفصح عن اعجابه هذا غير مرة ويحلل له ، نظراً لصدق مواهبه ، ما يستهجنه عند كثيرين من ذوي الشهرات التي شادها الغرض أو المال او السياسة او الطموح السخيف . وفي كتابه (Le Monde à l'Envers) الصادر سنة ١٩٣٢ حيث يحمل على

فرنسا الزاهية ويتناول بالنقد حتى انظمتها الفنية و الادبية ، هو يسخر من وفرة ما تصدره المطابع لانحطاط نوعه الثقافي والفني في نظره ويلوم الذين يزعمون تقويمهم كتّاباً ومؤلفين لكثرة ما يصوّدون من لغو الكتب رغبة في الربح المالي وفي توطيد شهرات لا دعامة لها . ولكن تراه في صفحة ٢٠٥ من ذلك الكتاب يبرر كثرة الانتاج من لبون دوديه . فيقول :

« ان اكثر صانعي الكتب يندفعون وراء محنة التصنيف بما يفوق مقدرتهم ، لان مقدرتهم هي محور الموضوع . ليس الغرض حمل الكتّاب على الاقتصار على قاعدة متشابهة وفرض كمية الانتاج عليهم جميعاً بطريقة متماثلة . عندما رجل كليون دوديه يخرج المؤلفات بوفرة فهو في ذلك يخضع لمزاجه اكثر مما يطيع مقتضيات العصر . وقد كان يفعل ذلك في عصر غير هذا العصر ، شأنه شأن بلزاك او فولتير . ولكن حيال هؤلاء الكتّاب الذين ترى عندهم الافكار والخيالات في تفجر مستديم ، يوجد آخرون عبقريتهم اقل خصوبة وهم موهوبون لانتاج كمية محدودة من الصفحات تتجمع فيها كل مواهبهم « الادبية » — (Toute leur séve) »

غير ان اعجاب بلوديه ليس هو الذي يقود قلمه في شرح قضية « لاكسيون فرانسز » مع الفاتيكان ، على ما يبدو لي . وقد افرد في كتابه المذكور آنفاً ، فصلاً خاصًّا لموضوع « الكنيسة بين اعدائها والمدافعين عنها » . وهو الفصل السادس ويبتدىء صفحة ٢١٧ . فيسجل في مطلعه ان « الكنيسة نفسها — كائناً ما كان الالم الذي يقتابنا من تعرف ذلك — الكنيسة نفسها لم تتملت مما يلازم هذا العصر من تشويش وارتباك » . « ليس المراد بهذا الكنيسة من حيث هي تثبت نفسها نظاماً الهيًّا وانها بصفتها تلك تحتفظ بالعقيدة الدينية وتعلمها . . . وانما المراد في هذه الصفحات هو عملها البشري والسياسي والاجتماعي خصوصاً في فرنسا اليوم . . .

« تأسست الجمهورية في فرنسا منذ ستين عاماً ومن غاياتها الاساسية الثابتة محاربة الكنيسة والعمل على هدم العقائد والتعاليم المسيحية . . . فما هو سلوك الكنيسة حيال هذا النظام ؟ لقد ابت الكنيسة دائماً التحزب لاي سلطان زمني وهي تسلم بأن جميع صنوف الحكم مباحة مشروعة . فلم يكن لها ان تنكر الجمهورية من حيث هي نظام حكم . بل على النقيض ، لتتملص من الظنة كانت تخيل انها تنكر الشعب الفرنسي وكانت الكنيسة لا تراها ضرورية وقد كان ذكرها يظهر الكنيسة بمظهر المعرضة — كان على الكنيسة ان تحمل المؤمنين على قبول النظام الجديد بنزاهة » . . .

« ولئن باشرت الجمهورية حملتها ضد الكنيسة فان الزمن لم يكن ليثبت بعد ان هذا التعصب ضدها ضروري . فأعرب البابا لاون الثالث عشر عن رجائه بأن كاثوليك فرنسا بقبول الديمقراطية انما ينجحون بتجريدها من صفتها المضادة للمسيحية ، لأنهم بذلك يكفّون عن تقديم السبب السياسي لمحاربة الدين . فيسّر اتحاد الفريقين (LeRalliement) اختباراً كان يومئذ مغرياً ، ولكن في وسعنا اليوم ان نقدر نتائجه » . وتلك النتائج في نظر المؤلف لم تكن الا الاخفاق التام

ويستأنف في نفس الفصل فيوصلنا الى صميم الموضوع :

«باستثناء اصحاب البلاهة في الموضوع الديني ، ومنهم العدد الأكبر ، يوجد بين الذين لا يؤمنون فريقان : الفريق الاول يتكوّن من الموظفين الرسميين في الجمهورية ، وهم فريق الذين لا يؤمنون ويمقتون الذين يؤمنون » ... « والفريق الآخر يتكوّن من الذين لا يؤمنون لانهم لم يتلقوا في نفوسهم نعمة الايمان ، ولكنهم يكبرون الايمان كحسنة من اعظم الحسنات التي تحلي النفس ، ويجلّون في الكنيسة ان لم يكن النظام الالهي فأعلى الانظمة البشرية . بينهم وبين الايمان تقوم اعتراضات عقلية لم يتمكنوا من التغلب عليها . ولكن بدلاً من ان يجعلوا عجزهم مثالاً فيستخرجون منهُ تعليماً ، هم يتحرزون من تحقيق اي تحزّب ضد الايمان الذي يتمنون سعادته لجميع النفوس . . .

« تلك كانت عاطفة موريس باريس . وهذا هو شعور شارل موراس وغيره من الذين لا يؤمنون المتحدين بقوم كثيري العدد والاهمية من الكاثوليك الموالين لحركة « لاكسيون فرانسيز » . وهذا الاتحاد كان منطقيًّا وطبيعيًّا . لم يكن مدهشاً ان ينضم الذين لا يؤمنون الى الذين يؤمنون في الميدان السياسي ما دام هؤلاء وأولئك على اتفاق ليس فقط فيما يتعلّق بضرورات الدولة ، بل كذلك فيما يتعلق بحقوق الكنيسة وهي ذات الحقوق التي تطالب بها الكنيسة . او لم ينصح البابا بيوس العاشر باتحاد جميع الاشخاص المستقيمين للدفاع عن الحريات الدينية ؟ ...

« ... والامر هو انهُ بينما الفاتيكان يحاسن انصار العلمانية ويسمح للكاثوليك بمناصرتهم ، نرى الفاتيكان يدخر لموراس ولاصحاب موراس اشد الجفاء . هؤلاء الناس الذين يخدمون مصلحة الكنيسة بعناء وبتجرد تام من الغرض ، يصب عليهم الفاتيكان اللعنات ويعاملهم معاملة الموبوئين ويهددهم بأقسى العقوبات ويحرمانهم من الأسرار الكنسية ، كما يحظر على الكاثوليك الانضمام إلى جماعة « لاكسيون فرانسيز » وتداول صحيفتهم وتأييد حملاتهم السياسية

« — لماذا ؟ إننا نجهل السبب . لقد كتب شارل موراس في الماضي كتباً لا يسع الكنيسة الا إستنكار بعض صفحاتها . ليس من يجادل في ذلك حتى ولا المؤلف نفسه . ولكن في مؤلفات دومرج وبوانكاره وبريان وتارديو يمكن استقاء بيانات اخرى كثيرة لا يسع الكنيسة الا مصادرتها . وما تقصده الكنيسة ليس كتابيْ موراس « طريق الجنة » و « آنتيغا » ، ولكنها تقصد عمل موراس السياسي وبخاصة العمل الذي يصطنعه منذ تأسيس « لاكسيون فرانسيز » اليومية . ان علماء اللاهوت الاكثر اطلاعاً يرون ذلك العمل في دائرته الخاصة وليس فيهِ ما يستوجب اللوم ، وإذ هم أسفوا لانهُ لا يقوم على دعائم الحقيقة المنزلة . حتى الكاردينال آندريو (Andrieu) نفسه كان يرتئي هذا الرأي عند ما كان يثني على قلم موراس ، قائلاً ان ذلك القلم يوازي سيفاً

« ... بينما امثال بريان وتارديو لا ينفكون عن العمل ضد الايمان فان موراس لم يعمد يوماً

الى تحويل نفس عن الايمان او الى حدم الوسائل الطبيعة التي تمكن الايمان من النمو وتحفظه بل على النقيض ، كثيرون ممن ارتدوا الى العقيدة حواليه بفعل تأثيره ليس بسبب ما يعلمه نحو الكنيسة من اعجاب وصداقة فحسب ، بل بفضل شتيت المقارنات التي أوضحها للكثيرين بين القوانين السياسية والاجتماعية التي ينادي بها وبين التقاليد الكاثوليكية . ومع ذلك فالذي يحكم عليه ليس بريان وتارديو ، بل هو موراس . فبأي الضلالات تراه اوحى الى اصدقائه المؤمنين؟ لقد توسل هؤلاء ليكشف لهم عن ذلك ، ولكن عبثاً : العقوبة تطبق عليهم دون ان توضح لهم خطيئتهم »

« . . . ان النص الوحيد الثابت رسمياً من الفاتيكان وفيه البيان عن الحادم هو خطاب الكاردينال آندريو ، ذلك الخطاب الذي يُشرّد الالباب ، وفيه ينسب الى موراس القول المشكوك في صحته : « محرم دخول الله الى مراصدنا » . من هذا الخطاب ادرك كاثوليك «لا كسيون فرانسز» انهم يصطنعون العبودية ويأخذون بأسباب الالحاد . وقد احتج هؤلاء الكاثوليك على غير جدوى معتقدين انهم حياتهم لم يفكروا في اعادة تجارة الرقيق وانهم يؤمنون بكل ما تعلمه الكنيسة . فلم يصغ اليهم احد . وفي مجرد بقائهم على وفائهم لموراس الكفاية للاثبات انهم يفكرون في كل ذلك حتى ولو كانوا واثقين من انهم لا يفكرون ! وبينما كان الفاتيكان يعلن على هذه الصورة مناهضته للملكيين مقاومي الانظمة العفنة ، هذه الانظمة العلمانية ممثلة في ساسة يباركهم الفاتيكان من امثال ميلران وبريان ، كانت سارية تضع في البلاد الفرنسية الروح الذي لاهو ديني ولا هو اخلاقي

ويختم دي بلانهول هذا الفصل بهذه الكلمات . « هذه هي المناقضات المحيطة بالكنيسة في ايامنا » ... « لست احنق . اني ارقب واحاول ان افهم ، ولكن عبثاً . فافهموا انتم اذا استطعتم »

***

أفهمتَ ، انت الذي يقرأ ؟

اما انا فأعترف بأني كلما توسعت في مطالعاتي في هذا الموضوع امعنت في الجهل له وزدت عجزاً عن إدراك لبابه . قد يكون ان مطالعاتي لم تتناول الا النواحي الثانوية والاضافية وانها هي التي وزعت من فكري باقصائي عن الفكرة الجوهرية الصميمة التي تفيض على المشكلة نوراً وتجلوها اتم الجلاء . فهل بين القراء من يهديني ؟

وبعدُ اوَليست هذه المشكلة هي الواقعة حوالينا في اكثر الشؤون حتى اقربها الينا وألصقها بحياتنا ؟ نرى من الامور المظاهر والنمو والترامي ، ونطّلع على الكثير او اليسير من التفاصيل والاجزاء ، ولكن منذا الذي يستطيع ان يزعم انه ملك الباعث الاساسي وتمكن من المصدر ؟

وفي هذا الموضوع الذي تتنازعنا منه الفروض ، كيف يتسنى ان نبتّ في الحكم صادقين ؟